

معجم أساس البلاغة:

أنموذج فريد في الصناعة المعجمية عند العرب

بن عيسى الطاهر*

تلخيص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عمّا أنتجه العرب والمسلمون من إبداعات في مجال الصناعة المعجمية في علوم اللغة؛ ومثّلت هذه الصناعة مظهرًا حضاريًا مهمًا في التراث العربي القديم؛ لأنّ صناعة المعجم موهبة ومهارة ومعرفة، وهي فضلاً عن ذلك إنتاجٌ لغوي صعب؛ لأنّ صاحبها محتاج إلى جملة مواد لغوية وأدبية وتاريخية، ومعارف أخرى تتصل بهذه الصناعة من قريب أو بعيد. كما حاولت هذه الدراسة البحث في معجم "أساس البلاغة" للزمخشري، من حيث الأسس المنهجية التي قام عليها، والإضافات التي أضافها، وترتيب المادة العلمية، والمنهج المتبع في التعريف والشرح، والتمثيل والاستشهاد، كما هدفت إلى الإجابة عن التساؤل الآتي: لماذا صنّف الزمخشري هذا المعجم استنادًا إلى فنّ "المجاز" مخالفًا بقية اللغويين؟.

مقدمة:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عمّا أنتجه العرب والمسلمون من إبداعات في مجال الصناعة المعجمية في علوم اللغة؛ فقد بدأ الاهتمام بجمع اللغة وتدوينها منذ القرن الهجري الأول، وبدأت المعاجم اللغوية في الظهور والتطوّر في وقت مبكر، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ) أول من تمثل نظرية المعجم تمثلاً كاملاً حين صنّف كتابه المسعى بـ"العين"، ثمّ استمر التأليف في المعاجم وفق مدارس مختلفة، فأنتج الكثير من المعاجم اللغوية التي شملت مادة علمية وفيرة، وبمناهج وأهداف واضحة، ومثّلت هذه الصناعة مظهرًا حضاريًا مهمًا في التراث العربي القديم؛ لأنّ صناعة المعجم موهبة ومهارة ومعرفة، وهي فضلاً عن ذلك إنتاجٌ لغوي صعب؛ وصاحبها محتاج إلى جملة مواد لغوية وأدبية وتاريخية، ومعارف أخرى تتصل بهذه من قريب أو بعيد.

لقد صدرنا هذا البحث بمبحث تمهيدي تناولنا فيه - بإيجاز - مفهوم المعجم وأسباب نشأته في التراث العربي، ثمّ تحدثنا في المبحث الثاني عن أنواع المعاجم المتخصصة في اللغة، وهي تشمل قسمين متباينين: معاجم الألفاظ، وهي التي اهتمت باللفظ وأشكاله المختلفة، فرتبت مادتها اللغوية

* قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الشارقة.

استنادًا إلى مكونات هذا اللفظ، ومعاجم المعاني، وهي التي تعني بجمع وشرح الألفاظ التي تخصّ معنى من المعاني، أو موضوعًا من الموضوعات، ومثلنا لنماذج للقسم الأول بمعجم العين للخليل الفراهيدي (170هـ)، ومعجم الصحاح للجوهري (397هـ)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (395هـ)، ومعجم لسان العرب لابن منظور (711هـ)، وأمّا القسم الثاني فتناولنا فيه معجم "المخصّص" لابن سيده (458هـ).

وأما المبحث الثالث فقد تناول معجم "أساس البلاغة" للزمخشري (538هـ)، وذلك من حيث دوافع التأليف، والأسس المنهجية التي قام عليها، والإضافات التي أضافها، سواء من حيث المادّة العلمية، أو المنهج المتبع في التعريف والشرح، والتمثيل والاستشهاد، كما هدّفت إلى الإجابة عن التساؤل الآتي: لماذا صنّف الزمخشري هذا المعجم استنادًا إلى فنّ "المجاز" مخالفًا بذلك بقية اللغويين؟ ولماذا لم يصنّف العلماء الذين جاؤوا بعده معاجم وفق منهجه؟ وما فائدة هذا المعجم عند الدارسين في ظلّ تطوّر المفاهيم والمصطلحات في اللسانيات والأسلوبيات الحديثة.

(1) مفهوم المعجم وأسباب نشأته

المعجم في اللغة مشتق من (عَجَمَ). ولهذه الكلمة عدّة معاني لعلّ أقربها إلى مفهوم المعجم قولهم: أعجمت الكتاب: إذا بينته وأوضحته، وأزلت عجمته بما يميّزه عن غيره بنقطةٍ وشكلٍ¹. فكلّمة (معجم) في اللغة تدلّ على ما أزيلت عنه العجمة؛ أي الإبهام واللبس، وذلك بتنقيط الحروف وتحريكها، أو ضبطها وتمييز المتشابه منها.

وأما في الاصطلاح فالمقصود بالمعجم عند القدماء "الكتاب الذي يضمّ عددًا كبيرًا من المفردات اللغوية مقرونة بالشرح، وتكون مرتبة ترتيبًا خاصًا بحسب طريقة كلّ مؤلّف"². فكأنّ المعجم هو كلّ كتاب الذي يعتني بإيضاح معاني مفردات اللغة العربية، وهو يسوقها مرتبة ترتيبًا خاصًا، وتأتي كلّ مفردة مصحوبة بما يفسرها ويشرح معناها، وذلك ببيان أصلها أو اشتقاقاتها، وطريقة نطقها، ومع ذكر أدلّة فصاحتها واستعمالاتها.

¹ انظر: ابن جني أبو الفتح عثمان. الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب بيروت (د.ت): (ج3 ص76). وابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب المحيط، دار صادر بيروت 1992م، مادة (عجم).

² الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح في اللغة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي القاهرة، ص38.

وأشار الدارسون المحدثون إلى أنّ وظيفة المعجم الأساسية هي خدمة اللغة وتحديد قوانينها المعيارية، فالمعجم يهتم أساسًا بالكلمة إيضاحًا وشرحًا ليجلو منها ما نسميه المعنى العجبي¹. وقد تستعمل لفظة (قاموس) التي تعني في اللغة البحر العظيم مرادفة لكلمة (معجم)، وكان الفيروزآبائي (817هـ) أول من استعملها في معجمه المعروف (القاموس المحيط)، وأصبحت تستعمل لدى كثير من الدارسين في العصر الحديث.

وقد عرّف مجمع اللغة العربية بالقاهرة المعجم بأنه "ديوانٌ لمفردات اللغة مرتبٌ على حروف المعجم"².

وأما عن أسباب تأليف المعاجم اللغوية عند العرب فقد بدأت العناية بجمع اللغة منذ وقتٍ مبكر، وقد اعتمد علماء العربية على القرآن الكريم والشعر العربي وكلام العرب الموثوق بفصاحتهم، وقد بذلوا جهدًا في عملية الاستقصاء والتلقي عن الفصحاء من العرب الخلف، فحصروا القبائل التي ينبغي الأخذ عنها وتركوا ما سواها، واشتروا لذلك شروطًا تشبه تلك الشروط التي وضعها المحدثون في جمع الحديث الشريف، وعندما انتهى زمن البحث الميداني غلبت على العلماء النزعة إلى التصنيف والتنظيم، ونحاول الآن أن نعرض لأهم الأسباب التي دعت إلى تأليف المعاجم ونوجزها في النقاط الآتية³:

1- الاهتمام بقراءة القرآن الكريم وفهم معانيه، ومعلوم أنّ فهم مفرداته يساعد على فهم المعنى، ومن هنا كان الاهتمام بشرح غريب القرآن في كتب ورسائل مستقلة، ثمّ أصبحت فيما بعد جزءًا من المادة المعجمية.

2- العناية بتدوين اللغة من أجل المحافظة عليها من الضياع أو التغيير أو دخول ما ليس منها من مفردات، وذلك بعد ظهور اللحن والعجمة في القرن الهجري الأول وما تبعه من قرون ظهرت فيها مشكلات لغوية خطيرة.

¹ تمام حسان. مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1400هـ. 1979م، ص 258.

² إبراهيم مصطفى، وآخرون. المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة إسطنبول (تركيا) (د.ت)، مادة (عجم).

³ انظر: الباتلي، أحمد. المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها، دار الراجية، الرياض 1992م، ص 13، 14.

3- العناية بتفسير الألفاظ الواردة في الحديث النبوي الشريف، وغير ذلك من الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، وقد صُنِّفت كتبٌ ورسائل في غريب الحديث، ثمَّ أدرجت مادتها في المعاجم اللغوية مثل كتاب غريب الحديث لابن قتيبة (276هـ).

4- الاهتمام بفهم الشعر العربي القديم وغيره من الكلام المنثور، وذلك بشرح غريبه وبيان ما أشكل منه، وما اختلف في تأويله.

5- العناية بالضبط الصحيح للكلمات أو ما سمي بـ(الإعجام)، وذلك لهداية الناس إلى نطقها الصحيح.

ظهرت المعاجم اللغوية في القرن الثاني للهجرة، ومرت قبل الوصول إلى مرحلة النضج والاكتمال بمرحلتين اثنتين¹:

المرحلة الأولى: جمع الكلمات وتدوينها بعد التأكد من فصاحتها.
المرحلة الثانية: جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في رسائل مستقلة، كالخيل والإبل والطيور والجراد والمطر وغير ذلك.

ثمَّ ظهر أول معجم عند العرب وهو معجم "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)، وهو معجم مرتب وموسَّع ومتكامل المعالم، أفاد صاحبه من الكتب والرسائل التي سبقته، ثمَّ توالى بعده الجهود في تأليف المعاجم؛ فألف القالي بارعه، والأزهري تهذيبه، وابن دريد جمهرته، والجوهري صحاحه².

(2) أنواع المعاجم اللغوية في التراث العربي

تعددت المعاجم اللغوية العربية وتنوعت مناهجها ومدارسها، وهو ما جعل العالم اللغوي الألماني (فيشر) يذكر في مقدّمة كتابه "المعجم التاريخي": "إذا استثنينا الصين، فلا يوجد شعبٌ آخر يحقُّ له الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكّر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها بحسب أصولٍ وقواعدٍ غير العرب"³.

¹ أبو سكين، عبد الحميد. المعاجم العربية مدارسها ومناهجها، ط1 الفاروق الحديثة للطباعة، القاهرة 1981م، ص19، 20.

² المرجع نفسه، ص20.

³ نقلاً عن: محمد، حسن عبد العزيز. مصادر البحث اللغوي، دار الكتاب الجامعي، الكويت 1997م، ص154.

فقد تفنّن العرب في وضع المعاجم اللغوية من حيث المواد اللغوية الكثيرة، ومن حيث طرائق التصنيف والتبويب والعرض. و"قد تعددت طرائق وضع المعجم العربي حتى كادت تستنفد كل الاحتمالات الممكنة. وكان العرب منطقيين حينما لاحظوا جانبي الكلمة، وهما اللفظ والمعنى، فرتبوا معاجمهم -إجمالاً- إمّا على اللفظ، وإمّا على المعنى، وبهذا وُجد قسمان رئيسيان هما: معاجم الألفاظ، ومعاجم المعاني. وقد كان مجال تنافسهم واضحًا بالنسبة للقسم الأول؛ حيث وجدت في داخله طرق متعددة، بخلاف القسم الثاني حيث لم يوجد فيه إلا طريقة واحدة¹.

أولاً: معاجم الألفاظ:

وهي المعاجم التي اهتمت باللفظ وأشكاله المختلفة، فرتبت مادتها اللغوية استنادًا إلى مكونات هذا اللفظ ونظرة كلّ مصيّف، ونتج عن ذلك اتجاهات متنوعة يمكن توزيعها في مدارس متباينة على النحو الآتي:

(1) مدرسة الترتيب المخرجي (الصوتي):

وأشهر هذه المعاجم هو معجم (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)، ويعدّ أول معجم عربي متكامل الأجزاء وواضح المنهج، في دلالة واضحة على العبقرية العربية وتطوّر الصناعة المعجمية عند العرب.

أراد الخليل حصر أبنية اللغة العربية من مستعمل ومهمل، "فاتبع طريقة منطقيّة رياضية؛ إذ رأى أنّ الكلمات العربية قد تكون ثلاثية أو رباعية أو خماسية، وفي كل حالة يمكن تبديل حروف الكلمة إلى جميع احتمالاتها، بالانتقال من حرف هجائي إلى الذي يليه، وبتقليب أماكن هذه الحروف إلى جميع أوجهها الممكنة، يمكن الحصول على معجم يضم جميع كلمات اللغة من الناحية النظرية؛ غير أنّ أصحاب اللغة لا يستخدمون كلّ الأبنية النظرية التي يمكن -وفقاً لهذا المنهج- حصرها، ولهذا كان الخليل ينصّ على ما يستعمل منها"². يقول عز الدين إسماعيل: "لقد أتم الخليل هذا العمل في زمن مبكر قبل أن يتم جمع اللغة بطريقة شاملة وتصنيفها في الموضوعات التي سبق ذكرها، وقد كانت هذه أول مرة يواجه فيها عالم لغوي قديم مشكلة البحث عن شكل لمعجمه، ولا بدّ أنه استعرض لنفسه

¹ عمر، أحمد مختار عبد الحميد. البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب القاهرة 2003م، ص175.

² محمد حسن عبد العزيز. مصادر البحث اللغوي، ص155.

أكثر من شكل لهذا المعجم، يقول ابن كيسان: "سمعت من يذكر الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص، والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أفصح الحرفين، فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف"¹.

ويفهم من هذا الكلام أمران: أولهما: أن الخليل لم يفكر بادئ ذي بدء في أن يرتب معجمه وفقاً للترتيب الأبثي المعروف، لأنه عندما أجال النظر في هذه الحروف نظر إليها من الناحية الصوتية، أي من ناحية مخارجها من الحلق، ورتب معجمه على الحروف بحسب مخارجها وابتداً بالصعود تدريجياً حتى تنتهي إلى الشفتين، وجعل ترتيب الحروف هكذا: ع، ح، هـ، خ، غ/ق، ك/ج، ش، ض/ص، س، ز/ط، د، ت/ظ، ذ، ث/ر، ل، ن/ف، ب، م/و، أ، ي، ء.

ولما استقام له الأمر على هذا النحو جعل لكل حرف كتاباً، فكتاب في العين، وكتب في الحاء، وكتاب في الهاء، وهكذا، ثم سمى كتابه "العين" لأنه الحرف الذي بدأ به، وكان على الخليل بعد ذلك أن يستقصي الأبنية، ولم يجد مشقة في ذلك؛ حيث إن الصرفيين كانوا قد حصروها من قبل، فقد تتبعها الخليل تتبعاً علمياً دقيقاً وحصرها بين الثنائي والخماسي، وأشار إلى المستعمل والمهمل في أبنية الثنائي والثلاثي، أما الرباعي والخماسي فأغفل الإشارة إلى المهمل منهما لأنه فوق الحصر. وهداه إلى فكرة حصر المستعمل والمهمل طريقة التقاليد، التي تقوم على ذكر الكلمة وقلبها على كل وجه، بحيث يتألف من مقلوباتها ست كلمات.

واهتم الخليل في معجمه بالاشتقاق، كما عني بلغات العرب ولهجاتها. ولكن على الرغم من ذلك فإن العين لم يسلم من بعض الهنات والسقطات؛ أولها: صعوبة البحث فيه، وهذا العسر ترتيبه لأنه رتب حروفه حسب المخارج، ومن الصعب تتبع هذا الأمر. ثانياً: التصحيف والخطأ في الاشتقاق؛ ذلك أنّ الكتابة في ذلك العصر لم تكن تنقط، وحروف اللغة العربية متقاربة في الشكل، يقول السيوطي: "وقد طالعت (العين) إلى آخره فرأيت وجه التخطئة فيما خطئ فيه غالباً من جهة التصريف والاشتقاق كذكر حرف مزيد في مادة أصلية، أو مادة ثلاثية في مادة رباعية، ونحو ذلك"².

¹ عز الدين إسماعيل. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار المسيرة عمان الأردن 2003م، ص 237.

² السيوطي، جلال الدين. المزهري في علوم اللغة، ط3 دار إحياء التراث العربي، بيروت: (ج 1 ص 86).

ويبقى معجم (العين) أحد أهمّ المعاجم في التراث العربي الأصيل؛ وذلك لما حواه من مادة علمية غنية، ومنهج في التصنيف بدیع، وقد أفاد منه أغلب العلماء الذين جاؤوا بعده، منهم من أتبع منهجه كالقالي في معجمه (البارع)، والأزهري في معجمه (التهذيب في اللغة)، والصاحب بن عباد في معجمه (المحيط)، وابن سيده في معجمه (المحكم)، ومنهم من أفاد من المادة اللغوية وغير في طريقة التبويب، وهو ما أنتجته مدارس لغوية أخرى في صناعة المعجم.

(2) مدرسة الترتيب الهجائي العادي:

وقد تشكّل في اتجاهين:

الأول: ترتيب الكلمة تحت حرفها الأخير، ولذلك سمّي هذا النمط بمدرسة القافية أو مدرسة الصّحاح، وتضمّ هذه المدرسة معاجم كثيرة أشهرها ثلاثة: "الصّحاح" للجوهري (398هـ)، و"لسان العرب" لابن منظور (711هـ)، و"القاموس المحيط" للفيروزآبادي (817هـ). وفي القرن الثاني عشر الهجري توجّ الزبيدي (1205هـ) الصناعة المعجمية بمعجمه الكبير المسّمى "تاج العروس من جواهر القاموس". وعُني فيه بضبط اللغة والأعلام والأماكن.

الثاني: ترتيب الكلمات تحت حرفها الأول، وسمّي هذا النمط من الترتيب بمدرسة الترتيب الأبتئي (مدرسة الأساس)، وأشهر المعاجم في هذه المدرسة: "الجمهرة" لابن دريد (321هـ)، و"مقاييس اللغة" و"المجمل" لابن فارس (395هـ)، و"أساس البلاغة" للزمخشري (538هـ)، وهو مفيد لمن يريد أن يقف على مواطن الحسن في لغته الجميلة، ولمن يريد أن يربّي ملكته الأدبية، وهي نصيحة إمام البيان العربي؛ الرافعي.

وقد خالفت هذه المدرسة نظام الخليل الصوتي في الترتيب، ولجأت إلى نظام آخر هو الترتيب الأبتئي. وسنتحدث بإيجاز عن ثلاثة معاجم مهمّة في هذه المدرسة هما "الصّحاح" للجوهري، و"مقاييس اللغة" للجوهري، و"لسان العرب" لابن منظور.

(أ) معجم الصّحاح للجوهري: مؤلفه: هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، وقد اختلف في تاريخ وفاته، فقيل: إنّه توفي في سنة (393هـ) أو (397هـ)، وقد وفد إلى العراق وأخذ اللغة والنحو عن أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي، ورحل إلى البادية لمشاهدة الأعراب، وكان الهدف من هذه الرحلة هو الاستيثاق من صحّة ما تجمّع لديه من مادة لغوية. وبعد هذه الرحلة توجه إلى خراسان ومنها إلى نيسابور حيث استقر به المقام، وفيها ألف كتابه "الصّحاح".

يُورخ ظهور معجم "الصّحاح" لتحول جوهرى في تاريخ تأليف المعاجم العربية، فقد شقّ لنفسه بين المعاجم القديمة والمعاصرة طريقًا جديدًا، ييسر على الباحث فيه سبيل الوصول إلى بغيته، وهذا بفضل النظام الجديد الذي اتبعه الجوهرى في ترتيب مادته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقول السيوطى عنه إنّه أول من التزم الصحيح مقتصرًا عليه، ولهذا أسمى كتابه الصّحاح¹، وبهذا ولذلك ذاعت شهرة الصّحاح، وكثرت تداوله بين الناس، يقول ياقوت: "كتاب الصّحاح هو الذى بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، أحسن الجوهرى تصنيفه، وجوّد تأليفه، وقرب متناوله، يدلّ وضعه على قريحة سالمة، ونفس عالمة"².

رتّب الجوهرى مادةً هذا المعجم على أساس ترتيب حروف الهجاء، لا على أساس ترتيب مخارج الحروف الذى وضعه الخليل، وقد اعتبر الجوهرى في الترتيب آخر الحروف لا أولها، فإذا كانت الألف المهموزة الأولى في ترتيب هذه الحروف، فإنه يبدأ معجمه باب يجمع فيه كل المفردات التى تنتهى بألف مهموزة، ثم يقسّم هذا الباب وفقًا لعدد حروف الهجاء إلى ثمانية وعشرين فصلاً، وهو في هذه الفصول يأخذ في الاعتبار مرة أخرى ترتيب حروف الهجاء، كما يعتبر الحرف الأول من المادة، فإذا كان الحرف الأول هو الألف المهموزة فإنه يبدأ باب الهمزة بفصل الهمزة. أما الحرف أو الحروف التى قد تتبع الحرف الأول فإنه يتبع فيها أيضاً نفس ترتيب حروف الهجاء، ومن ثم فإنّه يبدأ الباب الأول (باب الألف المهموزة) بالفصل الأول (فصل الألف المهموزة) مع الالتزام بالترتيب الهجائى للحرف أو الحروف التى تليها، وفي حالات المواد الرباعية والخماسية يراعى إلى جانب نظام الباب والفصل ترتيب الحرفين الثانى والثالث فى الرباعى، والثانى والثالث والرابع فى الخماسى. وقد أفرد الجوهرى لكل حرف من حروف الهجاء بابًا، ولكنه جمع باب الواو والياء فى باب واحد، وطريقة الكشف فى الصّحاح عن معنى مفردة من المفردات أن تبدأ بتجريدتها من المزيد فيها من الحروف، وتعيد حرف الألف إلى أصله.

وهذا النظام الجديد الذى سار عليه الجوهرى جعل معجمه كلّه نسقًا واحدًا فلا يضل الباحث فيه الطريق إلى بغيته، ومع بعض الأخطاء التى وقع فيها المؤلف، يبقى للصّحاح مزايا كثيرة من حيث دقة نظامه وبساطته، ودقته فى ضبط الكلمات، وإيراد الشواهد من الشعر والنثر الموثوق بصحتهما

¹المصدر نفسه: (ج 1 ص 97).

²المصدر نفسه: (ج 1 ص 98).

للشرح والتوضيح، وعنايته بالمسائل النحوية والصرفية إذا عرضت له، وقد أصَلَ الجوهري هذا النظام، وفتح الباب لمن جاؤوا بعده، ولاسيما ابن منظور والفيروزآبادي.

(ب) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: مؤلفه هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي، وكان كما يقول عنه الثعالبي: "من أعيان العلم وأفذاذ الدهر، يجمع إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء"¹، أخذ العلم عن علماء عصره، وكان معجبا كل الإعجاب بشيخه أبي عبيد الله أحمد بن طاهر المنجم. وقد أشار ابن خلكان إلى مؤلفات ابن فارس وأشاد بها فقال: "كان إمامًا في علوم شتى وخصوصًا اللغة، فإنه أتقنها، وألف كتابه "المجمل في اللغة"، وهو على اختصاره جمع شيئًا كثيرًا، وله كتاب "حلية الفقهاء"، وله رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ذلك الأسلوب، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمداني صاحب المقامات. وقد اختلف في تاريخ وفاته، والأرجح أنه توفي سنة (395هـ).

كان تأثير كتاب "العين" للخليل بن أحمد قد بلغ ذروته عند من ألفوا في المعاجم من بعده، مثال القالي في البار، والأزهري في التهذيب، والصاحب بن عباد في المحيط، أما ابن فارس فقد تدبّر الأمر ورأى أن يصنّف المادة اللغوية على نحو آخر بهدف الكشف عن مزيد من خصائص اللغة العربية، وإفادة الباحثين من بعده في هذا المضمار، فألف كتابه مقاييس اللغة التي يعني بها المعنى المشترك بين صيغ اللفظ المختلفة، فهو يرى في مقدّمة كتابه أن للغة العرب مقاييس صحيحة، وأصولاً تتفرع منها فروع. وقد نجح ابن فارس إلى حد كبير في استنباط المعنى المشترك بين صيغ المادة في الثنائي والثلاثي، وعندما حاول في الألفاظ الرباعية والخماسية لم يتمكّن من ذلك، ولهذا فقد حاول استنباط معاني هذه الألفاظ من خلال نظرية أخرى هي النحت.

ويعترف ابن فارس بأنّ هذا الاتجاه في تصنيف اللغة لم يكن من ابتكاره، بل كان الخليل بن أحمد له فضل السبق في الإشارة إليه، ونصّ ابن فارس في مقدمة كتابه أنه أخذ مادة الكتاب من كتب خمسة هي: كتاب العين للخليل، وغريب الحديث ومصنف الغريب لأبي عبيد، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت، والجمهرة لابن دريد. ثم قال بعد ذلك: وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها، حتى إذا وقع الشيء النادر نصصناه إلى قائله.

¹ انظر: ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر بيروت 1979م، ص5.

ورتبّ ابن فارس معجمه وفقاً للترتيب الأبثي، فجعل لكل حرف كتاباً، فكتاب في الهمزة، وكتاب في الباء، وهكذا.. ثم قسم كلّ كتاب إلى أبواب، فباب للثنائي المضاعف مثل: أبّ وأتّ ...، وباب للثلاثي مثل: أبت، وأبث...، فما زاد على ذلك من الرباعي والخماسي خصّه باب. والباب عنده يبدأ بالحرف الذي يكتب فيه، ثم يتبع بالحرف الذي يليه. فالهمزة مع الباء مثل: أب، ثم الهمزة مع التاء مثل: أت، وذلك في الثنائي، أما في الأبواب التي تختص بالثلاثي فقد بدأها بالهمزة والباء والتاء، ثم الهمزة والياء والتاء، ثم الهمزة والياء والجيم وهكذا، فإذا كان الباب في الهمزة والتاء وما يأتي بعدهما، بدأ بالحرف الذي يلي التاء لا الذي يسبقها، أي أنه لم يبدأ بأتب، بل سلسل ألفاظ هذا الباب على النحو الآتي: أتل، أتن، أنه، أتو، أتى، ثم يعود فيأتي بمادة أتب في نهاية الباب. وقد أخذ ابن فارس هذا الترتيب عن الخليل، على أنه لم يراع هذا الترتيب في الكلمات الرباعية والخماسية، واكتفى بأن أتى بالألفاظ للحرف المعقود له كل باب دون مراعاة للحرف الثاني، ودون مراعاة للفصل بين الرباعي والخماسي.

ومقاييس اللغة هو معجمٌ خاص، يهتم الباحثين في فقه اللغة العربية بالدرجة الأولى، وليس من المعاجم التي يرجع إليها في الأحوال العادية لمجرد الكشف عن معنى لفظة من ألفاظ اللغة.

(ج) معجم لسان العرب لابن منظور: مؤلفه هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثم المصري المعروف بابن منظور، كانت وفاته سنة (711هـ). عمل ابن منظور في ديوان الإنشاء طوال حياته، وولي قضاء طرابلس، وكان ميله إلى التشيع لكن دون مغالاة. كما كان محدثاً، فأخذ عنه كثيرون، وكان عارفاً بالنحو واللغة، والتاريخ والكتابة. والغريب في أمر ابن منظور اهتمامه طوال حياته باختصار الكتب المطولة التي صنّفت قبله، فقد اختصر كتاب الأغاني وكتاب الذخيرة ومفردات ابن البيطار، وتاريخ دمشق، وكان لا يملّ من ذلك، قال الصفدي: "لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره"¹، وكذلك يقال إن الكتب التي دونها بخطه من مختصراته بلغت خمسمائة مجلد، ونقول إن هذا الاهتمام بالتخليص غريب، لأنّه حين صنّف معجمه "لسان العرب" لم يحاول فيه اختصار كتاب من كتب اللغة التي سبقته، بل كان معجمه هذا أضخم وأوسع من كل المعاجم التي سبقته.

¹عزّ الدين إسماعيل. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص291.

وكان الدافع الذي دفع ابن منظور إلى تأليف كتابه هذا، هو محاولة الجمع بين إحسان الجمع وإحسان الوضع¹، أي بين الاستقصاء في المادة وسلامة العرض، وقد ضرب مثلاً بهتذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، على كتب اللغة التي توافرت في مادتها الدقة والإتقان ولكن عابها سوء الترتيب، ومن جهة أخرى ضرب مثلاً بصحاح الجوهري على حسن الترتيب والنظام، وإن كان من حيث المادة مختصراً، فضلاً عما فيه من الخطأ والتصحييف. وقد اعتمد ابن منظور على خمسة مصادر لجمع مادته هي: "التهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، وحواشي ابن بري على الصحاح، والنهاية لابن الأثير، وعلى هذا لم يكن ابن منظور مبتكراً في معجمه لشيء، أو مضيقاً لشيء، سوى أنه جعل من معجمه خزانة - كما يقول - للغة، ومن ثمّ فإنّه يعفي نفسه من كل مسؤولية علمية في هذا المعجم سوى صحّة النقل عن تلك المصادر.

واختار ابن منظور ترتيب مادة معجمه على نفس النظام الذي سار عليه من قبل الجوهري في صحاحه، أي نظام الباب والفصل، ومن ثمّ فلا حاجة بنا هنا إلى تكرار وصف هذا النظام، مادام ابن منظور قد طبقه بحذافيره، دون أدنى تعديل أو تغيير، أو زيادة أو نقصان، وكلّ ما هنالك من اختلاف بينهما لا يتعلق بهذا النظام، بل بطبيعة المادة التي كانت متوافرة لدى ابن منظور، ومن ثمّ فإنّنا نراه في بعض الأحيان يعقد فصلاً تمهيدياً قد يطول وقد يقصر، يتحدث فيه عن الحرف الذي يعقد له الباب. وكذلك وضع ابن منظور بين يدي المعجم كلّه فصلين تمهيديين أعقبا مقدّمته، وقد تناول في الأول منهما تفسير الحروف المقطعة التي وردت في أوائل سور القرآن الكريم، وفي الثاني ألقاب الحروف وطباعتها وخواصها، ومادة الفصلين مجموعة من أقوال علماء اللغة والنحو. وأما مادة المعجم نفسه، فقد بلغ عدد المواد اللغوية التي ضمها معجم لسان العرب ثمانين ألف مادة، أي ضعف ما في معجم الصحاح للجوهري.

ومعجم لسان العرب موسوعة لغوية وأدبية كبيرة، وهو يعكس كثيراً من مظاهر حياة اللغة العربية وحياة المجتمع العربي، على نحو يجعله مفيداً لا في المجال المعجمي المحدود، بل في مجالات علمية كثيرة متنوعة، وقد قام محمد النجاري بترتيب ألفاظ اللسان جميعاً على حروف الهجاء، مسقطاً بذلك نظام ترتيبه الأول من أجل التيسير.

¹ انظر: مقدمة لسان العرب، طبعة دار صادر بيروت، ص7.

ثانياً: معاجم المعاني

معاجم المعاني هي كتبٌ تعتنى بجمع وشرح الألفاظ التي تخصّ معنًى من المعاني، أو موضوعاً من الموضوعات، وقد بدأت فكرة هذه المعاني في وقتٍ مبكّر في التراث العربي القديم، فظهرت رسائل مفردة ألقها القدماء ككتب الإبل والخيول والحيوان والنبات، للنضر ابن شميل (203هـ)، والأصمعي (208هـ)، وأبي عبيدة (209هـ) وغيرهم ... وإلى جانبها ظهرت كتب تجمع غير موضوع ككتب الصفات، وكتب الغريب، ومن أشهرها كتاب "الألفاظ" لابن السكيت (244هـ)، ويحتوي على مائة وخمسين باباً. ثم تطوّرت الصناعة المعجمية في هذا المجال فظهرت معاجم أكثر مادّةً وأحسن ترتيباً، منها "الألفاظ الكتابية" للهمذاني (320هـ)، و"جواهر الألفاظ" لقدماء بن جعفر (337هـ)، و"مبادئ اللغة" للإسكافي (420هـ)، ولعلّ أهمّها كتاب "فقه اللغة" للثعالبي (430هـ)، و"المخصّص" لابن سيده (458هـ). أمّا "المخصّص" فهو موسوعة لغوية بما فيه من موضوعات كثيرة، رتبها المؤلّف في أبواب كبيرة، بدأها بالإنسان، وصفاته وأخلاقه ولباسه وطعامه، ثمّ انتقل إلى الحيوان، ثمّ النبات، ثمّ الظواهر الطبيعية، ولأهمية هذا المعجم سنتحدث عنه بشيء من التفصيل.

مؤلّف "المخصّص" هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سيده الأندلسي، كان إماماً في اللغة والأدب، قال عنه القاضي الجياني: "كان مع إتقانه لعلم الأدب والعربية متوفراً على علوم الحكمة، وألّف فيها تأليفات كثيرة، ولم يكن في زمنه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب، وما يتعلّق بعلومها"، وقد ألّف عدّة معاجم أشهرها: المحكم، والمحيط الأعظم، والمخصّص، توفي سنة (458هـ).

هدف المؤلّف إلى وضع كتاب في اللغة يكون جامعاً شاملاً يضم فوائد كتب اللغة المتناثرة وحصرياً في كتاب واحد، كما رغب في تأليف معجم مرتب حسب الموضوعات لأنه أجدى للخطباء والفصحاء والشعراء.

اشتمل "المخصّص" على واحد وعشرين كتاباً، وأربعين وثلاثمائة باب، وقد رتب هذه الكتب ترتيباً منطقياً، فبدأ بالإنسان، ثم الحيوان، ثم الطبيعة، فالنبات، وأعطى كل كتاب عنواناً خاصاً به مثل: خلق الإنسان، والنساء، واللباس، والطعام، والأمراض، والسلاح، والخيول، والإبل، والغنم، والوحوش، والحشرات، والطير، والسماء، والفلك. ثمّ قسّم كل كتاب بدوره إلى أبواب صغيرة من أجل الاستقصاء ومحاولة منه في التدقيق والبحث المستفيض، فيذكر مثلاً في باب الحمل والولادة أسماء ما يخرج مع

الولد أولاً، ثم يذكر الرضاع والفظام والغذاء وسائر ضروب التربية، ويتحدّث عن غذاء الولد، وأسماء أول أولاد الرجل وآخرهم، ثم أسماء ولد الرجل في الشباب والكبر، وهكذا.

فالأبواب الرئيسية لهذا المعجم الموسوعي تدول حول الحقول الآتية¹:

1. الكائن البشري وبيئته، ويدخل في هذا الحقل أبواب: خلق الإنسان، وغرائزه، والنساء، واللباس، والطعام، والأمراض...إلخ.

2. الحيوان، ويدخل فيه: الخيل والإبل والغنم والوحوش والسباع والحشرات..إلخ.

3. الطبيعة والنبات، ويدخل فيه: الأنواء والنخل وأنواع النبات ... إلخ.

4. الإنسان والمجتمع، ويدخل فيه أبواب تتحدث عن أسفاره وأحواله ونشاطه وعمله وعلائقه ولهوه وتطيره.

وقد عُني الكتاب ببعض المباحث النحوية والصرفية في الأقسام الأخيرة منه.

وخلاصة القول: إنّ كتاب "المخصّص" هو أحد أضخم معاجم المعاني في تراثنا القديم، وهو يمثل بحق تطوّر الصناعة المعجمية في مستوياتها المختلفة، من حيث المادة، والمنهج، والدقّة والاستيعاب، وهو موسوعة لغوية وثقافية بما حواه من معارف عن اللغة العربية ومعرفة دلالاتها المختلفة، وما يطرأ على بنيتها من تطورات صوتية أو تغيرات تقتضيها قوانين اللغة، كما اشتمل الكتاب معارف القدماء في الفلسفة والمنطق والطب والاجتماع... وغيرها. قال الشنقيطي في حديثه عن قيمة هذا المعجم: "أحسن ديوان من دواوين اللغة العربية، وأحقّ كتاب بأن يرحل في طلبه من أراد السيق في الفضل. وكفى مؤلفه هذا الصنيع الجميل الذي لم يسمح الدهر ولا يسمح له بمثيل... إذ جمع فيه ما تكلمت به العرب في كل جليل ودقيق... حتى إذا فرغ من ذلك أفاض في أبواب العربية، من نحو وصرف وغيرها"².

(3) معجم أساس البلاغة للزمخشري

مؤلف معجم "أساس البلاغة" هو محمود بن عمر المعروف بجار الله الزمخشري (538هـ)، كان إمام عصره في اللغة والأدب والبلاغة، سافر إلى مكّة، وجاور بها زماناً طويلاً فلَقّب بجار الله، ثمّ استقر به المقام في الجُرْجانية حتى توفي بها سنة (538هـ). ترك العديد من المصنّفات القيّمة التي تعدّ مصادرَ في علوم البلاغة واللغة منها: "الكشاف"، و"المفصّل" في علوم البلاغة والنحو، و"أساس

¹ محمد حسن عبد العزيز. مصادر البحث اللغوي، ص213.

² انظر: مقدمة المخصّص، طبعة المطبعة الأميرية بمصر 1901م في خمسة مجلدات.

البلاغة" في اللغة، قال ياقوت الحموي في ترجمته: "كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل، متفنناً في علوم شتى، معتزلي المذهب مجاهراً بذلك"¹. وسنحدث عن هذا المعجم من حيث دوافع التأليف، والمنهج، وميدان البحث، وعناصر التجديد، والمآخذ التي أخذت عليه.

1. دوافع تأليف معجم "أساس البلاغة":

تحدث الزمخشري عن هدفه من تأليف هذا المعجم في مقدمة الكتاب فقال: "ولما أنزل الله تعالى كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السُّبُقي، وونت عنها خطا الجياد الفُرح، كان الموفق من العلماء الأعلام، أنصار ملة الإسلام، الذائين عن بيضة الحنيفية البيضاء، المبرهين على ما كان من العرب العرباء، حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم، والفرع إلى المقارعة بأسنة أسلهم، من كانت مطامح نظره، ومطرح فكره، الجهات التي توصل إلى تبين مراسم البلغاء، والعثور على مناظم الفصحاء، والمخايرة بين متداولات ألفاظهم، ومتعاورات أقوالهم، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا، وما استركوا واستنزلوا، وما استفصحو واستجزلوا، والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف، حتى يكون صدر يقينه أثلج، وسهم احتجاجه أفلج، وحتى يقال: هو من علم البيان حظي، وفهمه فيه جاحظي، وإلى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير إليه محمود بن عمر الزمخشري، عفا الله تعالى عنه، في تصنيف كتاب أساس البلاغة"².

فالدافع وراء تأليف هذا المعجم هو البحث في بلاغة العرب، "فهو يرمي إلى تبين مراسم البلاغة في أقوال العرب، ليسمو منها إلى مراسمها في القرآن، الذي نزل بلغتهم وعلى سننهم في التعبير، والهدف البعيد لكل ذلك ديني كما هو واضح"³، وهو الكشف عن إعجاز القرآن.

¹ ياقوت، الحموي. معجم الأدياء، ط دار المأمون مصر 1938م: (ج 19 ص 126).

² مقدمة أساس البلاغة، صفحة م.

³ حسين، نصار. المعجم العربي نشأته وتطوره، دار مصر للطباعة القاهرة 1968م، ص 550، 551.

وللمعجم أهداف أخرى كما يظهر من كلام المؤلف منها: الهدف العلمي، وهو وضع معايير وقوانين للتمييز بين مستويات الخطاب والكلام البليغ، قال في المقدمة: "ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح، بإفراد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح"¹.

ومنها أيضاً الهدف التعليمي، الذي يظهر في مساعدة القارئ على امتلاك الأسلوب الأدبي في الخطابة والكتابة، قال في مقدمة المعجم: "فمن حصّل هذه الخصائص وكان له حظ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها، ومعيار حكمة المواضع وقسطاسها، وأصاب ذرّواً من علم المعاني، وحظي برشٍّ من علم البيان، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة وسليقة سليمة، فحلا نثره، وجزل شعره، ولم يطل عليه أن يناهز المقدّمين، ويخاطر المُقرّمين"².

2. منهج معجم "أساس البلاغة":

أشار الزمخشري في مقدّمة معجمه إلى المنهج الذي اتبعه في ترتيب مادته اللغوية، فقال: "وقد رُتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولاً، وأسهله متداولاً، يهجم فيه الطالبُ على طلبته موضوعاً على طرف التمام وحبل الذراع، من غير أن يحتاج في التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاح؛ وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه"³.

فقد ذكر أنّ الترتيب المتبع هو الترتيب الألفبائي المعروف، وهو ترتيب ميسر يقوم على النظر إلى الحرف الأول من الكلمة، ثمّ الحرف الثاني، فالذي يليه، وهو ترتيب رائد في المعاجم اللغوية، وإن كان قد سبقه إلى ذلك بعض أصحاب الرسائل اللغوية الصغيرة والمعاجم الخاصّة⁴. وكلام الزمخشري يدلّ على أنّ هذا الترتيب الذي اتّبعه كان معروفاً ومتداولاً عند خروج كتابه إلى حيّز الوجود⁵، وقد اختار الترتيب الأسهل للقارئ في مقابل المناهج التي كانت رائجة كثيراً قبله في مدارس القافية والتقليبات الصوتية.

¹ مقدمة أساس البلاغة، صفحة (ن).

² المصدر نفسه، صفحة (ن).

³ المصدر نفسه، صفحة (ن).

⁴ حسين نصار، المعجم العربي، ص 552.

⁵ الهابط، فوزي يوسف، المعاجم العربية موضوعات وألفاظاً، ط 1 الولاة للطباعة، شبين الكوم مصر 1992م، ص 176.

أما عن طريقة عرضه للمادة اللغوية فقد يقسم المادة اللغوية إلى قسمين: القسم الأول للمعاني الحقيقية، والثاني للمعاني المجازية، ويحاول الفصل بينهما، وقد أشار إلى ذلك في مقدّمة المعجم فقال: "ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح، بإفراد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح"¹. فالمعجم معنيٌّ بالدرجة الأولى بالدلالات المجازية، وما كان يسوقه من معاني حقيقية عن الكلمة وبنيتها الصرفية بشيء من الاختصار، إنّما هو تمهيد لبيان خروج تلك الكلمة عن معناها الحقيقي إلى معاني مجازية مستعملة في الكلام العربي البليغ.

3. المادة اللغوية لمعجم "أساس البلاغة":

قسّم المؤلف معجمه إلى أبواب وفق حروف الهجاء المعروفة، فابتدأ بباب الهمزة، ثمّ باب الباء، فباب التاء... إلى باب الياء، والأبواب تنقسم إلى فصول بحسب الحرف الثاني من الحروف الأصلية للكلمة، ثمّ الحرف الثالث منها إن كانت ثلاثية، ثمّ الرابع إن كانت رباعية، أو الثالث فالرابع فالخامس إن كانت خماسية. وهو لا يفرّق بين الأبنية المختلفة، فيجعل لكلّ منها باباً خاصّاً، ولكنّه يوردها مجتمعة، فمثلاً يذكر في باب الهمزة مع الباء الأبواب الآتية: أ ب ب، أ ب د، أ ب ر، أ ب س، أ ب ش، أ ب ض، أ ب ط، أ ب ق، أ ب هـ، أ ب و، أ ب ي. فيقدّم الهاء على الواو في ترتيب المواد، بخلاف عادته في ترتيب الأبواب والفصول، وسبب ذلك إرادته التمييز بين الواوي واليائي، واحترازه من اختلاطهما إذا تجاوزا، فلمّا زال ذلك الالتباس في ترتيب المواد عدل عن عادته في الترتيب المؤلف².

والملاحظ أنّ المؤلف أسقط المواد التي لا تنسجم مع فكرته، فالمواد التي ليس لها دلالات مجازية لا مكان لها في معجمه، لأنّها لا تتماشى مع نظريته التي اتبعها في المعجم، وهي الكشف عن المجاز في لغة العرب.

ولنأخذ مثلاً من هذا المعجم وهو قوله في مادة (وعد): "وعدته كذا، وأوعده بالعبوبة وتوعدته. وقد أخلف وعدّه وعِدته وموعده وموعده وميعاده، وهذا الوقت والمكان ميعادهم وموعدهم، وتواعدوا واتعدوا، ووعدته فاتعد: قَبِل الوعدَ نحو وعظته فاتعظ. واشتدّ الوعيد.

¹ مقدمة أساس البلاغة، صفحة (ن).

² حسين نصار، المعجم العربي، ص 553.

ومن المجاز: وعدته شراً، [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ] (البقرة:268). وأصبحت أرضهم واعدة إذا رُجِي خيرها، وقد وَعَدَتْ. ويومٌ وعامٌ واعدٌ. ورأيت شجرها ونباتها واعدًا. وفرس واعدٌ يَعِدُ الجري. قال في صفة النخل:

كيف تَرَاهَا وَعِيدًا صغارها تسوءُ شُئَاءَ الْعِدَا كِبَارُهَا¹

لقد ساق المؤلف المعاني الحقيقية لكلمة (وعد) من خلال الفعل واشتقاقاتها المختلفة؛ وذلك تمهيداً لذكر المعاني المجازية، التي بدأها بآية كريمة من القرآن الكريم، وكأنه يشير إلى أنّ وعد الشيطان بالفقر هو تعبير مجازي، "فقد شُبِّهَ إلقاء الشيطان في نفوسهم توقع الفقر بوعدٍ منه بحصوله لا محالة، ووجه الشبه ما في الوعد من معنى التحقق"². ثمّ انتقل إلى التعبيرات المجازية التي تستعمل فيها كلمة (وعد) ومشتقاتها في الكلام الفصيح، فأشار إلى أنّ العرب تسمي الأرض واعدةً، واليوم والعام والشجر والنبات والفرس والنخل واعدًا، وهي تعبيرات مجازية أساسها المجاز العقلي، الذي يقوم أساسًا على إسناد الشيء إلى ما ليس له، وتدرُّك علاقاته بالقرائن العقلية. واستشهد المؤلف على هذه التعبيرات بأبيات من الشعر العربي الفصيح.

لقد أفاد الزمخشري كثيرًا من المعاجم التي سبقته، ولكن ميله إلى الاختصار جعل همّه منصبًا على إيراد العبارات المجازية الجميلة، وذكر شواهد لها من القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثال وكلام العرب المنظوم والمنثور. وهذه العناية بالمجاز جعلت هذا المعجم متفردًا بين المعاجم العربية. لم يذكر الزمخشري مفهومًا محددًا للمجاز، ولكن يظهر من خلال تطبيقاته العملية في معجمه أنّ المجاز هو خروج الكلمة عن معناها الحقيقي، ويكون ذلك في التراكيب والصيغ الأدبية، ويظهر كذلك أنّ المجاز لا يقتصر على المجاز المرسل والعقلي والاستعارة فقط، بل يشمل الكناية بأنواعها، كما أشار إلى التشبيه في بعض المواطن القليلة، مثل قوله: "ومن المجاز: هو أسودُّ كالْكُحَيْلِ الْمُعَقَّدِ، وهو القطران شُبِّهَ بِالْكُحْلِ فِي سَوَادِهِ"³.

¹ أساس البلاغة، مادة (وعد).

² ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس: (ج 2 ص 59).

³ أساس البلاغة، مادة (كحل).

وترد عند الزمخشري عبارة "مجاز المجاز" في بعض المواطن من معجمه، ولكنه لم يبيّن المقصود منها، وقد عزّفه عز الدين بن عبد السلام بقوله: "هو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فتجوّز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقة بينه وبين الثاني"¹. ومن أمثلة ذلك قوله: "عليّ بالسَّيفِ والنَّطْعِ ... ومن المجاز: ذلك التمرة على نِطْعٍ فيه، وهو ظهر الغار الأعلى. وهذا من الحروف النِطْعية وهي الطاء والذال والطاء، ومنه: تَنَطَّعَ في كلامه إذا تفصَّح فيه وتعمَّق. ورمى بلسانه إلى نِطْعِ الفم. ومن مجاز المجاز: تنطَّع الصانع: تحدَّق في صناعته. قال أوس:

وَحَشَوْ جَفِيرٍ مِنْ فُرُوعِ غَرَائِبِ تَنْطَعُ فِيهَا صَانِعٌ وَتَأْمَلًا²

فكلمة (نطع) تدلّ في الحقيقة على البساط من الجلد، ثمّ دلّت بالمجاز على نِطْعِ الفم وهو محلّ خروج الحروف النطعية، والتنطّع في الكلام التفصّح والتعمّق فيه، ثمّ دلّ بمجاز المجاز على الحدق في الصناعة: أي المهارة والإتقان.

ويمكننا القول: إنّ المجاز عند الزمخشري في معجمه يطلق إطلاقاً عامّاً على أنواع متعدّدة، فهو يشتمل على الكناية والاستعارة والمجاز العقلي والمرسل والتشبيه والأمثال، وبعض التعبيرات الخاصّة³، ولم يكن الزمخشري ملتزماً بتحديدات البلاغيين للمصطلح البلاغي، والظواهر البلاغية عنده مضطربة التحديد، قال مصطفى ناصف: "إنّ البلاغيين وضعوا قواعد لبلاغة الصور البيانية بدا الزمخشري مهملاً لها"⁴.

وأما عن سرّ اهتمام الزمخشري بالمجاز فهو انتشار الكلام عنه في عصره، وفي القرن الرابع الهجري الذي سبقه على وجه التحديد، وقد ذكر ابن تيمية ذلك بقوله: "تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنّما اشتهر في المائة الرابعة، وظهرت أوائله في المائة الثالثة، وما علمته موجوداً في المائة الثانية،

¹ العزّ بن عبد السلام. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ط دار الفكر دمشق، ص 145.

² أساس البلاغة، مادة (نطع). والبيت في ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار بيروت، بيروت 1980م، ص 89. ورواية الديوان (تنبلاً) بدل (تأملاً).

³ الهاشمي، معيد زمري. المجاز في أساس البلاغة للزمخشري، رسالة ماجستير (مخطوطة)، كلية التربية جامعة بغداد، ص 122.

⁴ نقلاً عن: حسين نصار. المعجم العربي، ص 562.

إلا أن يكون في أواخرها"¹. فالحديث عن المجاز في معجم الزمخشري جاء برغبة من المؤلف في خوض هذا المجال من خلال المؤلفات التي ألفها ولا سيما "الكشاف" و"أساس البلاغة"، ومعلوم أنّ المجاز كان أحد أهمّ الأدوات التأويلية للنصوص الدينية عند المعتزلة، وغيرهم من الفرق والمذاهب الفكرية التي انتشرت في عصر المؤلف.

4. مأخذ الدارسين على معجم "أساس البلاغة"²:

1. أشار الدارسون إلى اضطراب المعجم في تحديد المجاز في بعض المواضع منه، فقد وضع بعض العبارات المجازية في الأقسام الحقيقية، ووضع بعض العبارات الحقيقية في الأقسام المجازية، والأمثال بعضها يوضع في الحقيقي، وبعضها الآخر في المجازي دون فرق جوهري بين النوعين. وقد ذكر حسين نصار أنّ هذا الأمر هو أهمّ مأخذ يؤخذ عليه؛ لأنه الدعامة التي قام عليها المعجم³.

2. اضطراب الترتيب في بعض المواضع، ومن ذلك إدخال المواد الرباعية في الثلاثية؛ فقد أدخل (حدبر) في (حدب)، و(حدرج) في (حدر)، و(حشرج) في (حشر)، و(سمحق) في (سمح)، و(سمدع) في (سمد)، و(عجرف) في (عجر)، و(كرفس) في (كرف)، وغيرها.

3. أغفل المعجم ذكر أسماء أصحاب العبارات والأسجاع، وذلك من شأنه إفادتنا فائدة لا تقدّر في ترتيب هذه العبارات ترتيبًا تاريخيًا، وتبيّن منه التطور التاريخي للمعنيين الحقيقي والمجازي لها.

4. لم يعتن المعجم ببيان نوع المجاز، ولم يفرق بين أنواع المجازات المختلفة، فغالبًا ما كان يعرضها بعنوان (ومن المجاز)، وفي بعض المرات (ومن الكناية)⁴، وفي أخرى (ومن المجاز والكناية)⁵، ولم يعتن بتحديد هذه المصطلحات ولو بشيء من الاختصار، وأحدث هذا خلطًا واضطرابًا في المعاني الاصطلاحية التي كانت معروفة في كثير من المؤلفات في عصره.

¹ ابن تيمية، أحمد عبد الحليم. مجموع الفتاوى، ط مكتبة ابن تيمية، الرياض 1982م: (ج7 ص 88، 89).

² حسين نصار. المعجم العربي، ص 565، 566.

³ المرجع نفسه، ص 566.

⁴ ذكرها في سبعة عشر موضعًا في المعجم.

⁵ ذكرها في ستة مواضع في المعجم.

5. يستخدم المؤلف عبارات مسجوعة في تناوله للمادة المتعلقة بالمجاز، كقوله: "ومن المجاز:...فلانة لو أبصرها الأبيُّ لضاق به السبيل"¹. ولكّنه لم يلتزم بها في جميع المواد التي في الكتاب.

5. عناصر التجديد في معجم "أساس البلاغة":

يختلف هذا المعجم عن بقية المعاجم من حيث أهدافه ومادته، فالشغل الشاغل للمعاجم السابقة له هو البحث في اللفظة المفردة، من حيث مبناها ومعناها ودلالاتها وبطريقة نطقها وفصاحتها، أمّا معجم الزمخشري فهو معجم بلاغي يبحث في العبارة المركبة، وليس كلّ عبارة مركبة وإنّما العبارة التي لها مركزٌ ممتاز في عالم اللغة والأدب، فيورد الألفاظ في استعمالها العربية البليغة، ولا يأتي بها مفردة عارية عن التركيب غالباً². قال في مقدّمة معجمه: "ومن خصائص هذا الكتاب تخيّر ما وقع في عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلّحين، أو ما جاز وقوعه فيها، وانطواؤه تحتها، من التراكيب التي تملحُ وتحسُن، ولا تنقبضُ عنها الألسن، لجريها رسالتٍ على الأسلات، ومرورها عذباتٍ على العذبات"³.

ويمكن إجمال أبرز ما تميّزه المعجم في النقاط الآتية:

1. معجم "أساس البلاغة" هو "معجمٌ خاص بالتعبير العربي، وبالعبارة المؤلفة البليغة، لا أنّه معجمٌ للألفاظ، فيوضع الكتاب موضعه اللائق به، ويقدر حقّ قدره، وينسبُ إلى مؤلفه توجيه حركة المعاجم إلى العبارات الأدبية البليغة، بدلاً من الاقتصار على الألفاظ المفردة"⁴. وقد ذكر ذلك في المقدّمة حين قال: "ومن خصائص هذا الكتاب تخيّر ما وقع في عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمال المفلّحين"⁵.

2. اهتم معجم "أساس البلاغة" بالمجاز، على عكس المعاجم اللغوية الأخرى التي تهتم بالمعاني الحقيقية للكلمات، وهذه العناية أعطت للمعجم قيمة لغوية وأدبية وبلاغية؛ لأنّ البحث في

¹أساس البلاغة، مادة (أبل).

²حسين نصار. المعجم العربي، ص551.

³مقدمة أساس البلاغة، صفحة (ن).

⁴حسين نصار. المعجم العربي، ص566.

⁵أساس البلاغة، صفحة (ن).

- المجاز يعني البحث في لغة النصوص الأدبية الراقية، ومحاولة الإشارة إلى عناصرها الأسلوبية واكتشاف دلالاتها المختلفة التي لا يدركها إلا بالذوق والممارسة النقدية.
3. يتميز هذا المعجم على غيره من المعاجم الأخرى بمنهجه في الترتيب، فقد سار على المنهج الألفبائي للمرة الأولى في تاريخ الصناعة المعجمية، وذلك بالاعتماد على بداية الكلمة وليس من نهايتها كما شاع في مدرسة "القافية"، وبذلك خطأ هذا المعجم خطوة مهمة في تيسير المعجم العربي، وقد أفادت المعاجم الحديثة من طريقته في الترتيب، وأصبحت هي المعتمدة في التصنيف المعجمي، بل إن أغلب المعاجم العربية الأخرى قد أعيد ترتيبها وفق طريقة "الأساس" لتحقيق التيسير في الكشف عن الكلمات.
4. كان لهذا المعجم أهداف كثيرة أشار إليها المؤلف في مقدمته، منها الهدف الديني (البحث في قضية إعجاز القرآن) والهدف العلمي (البحث في التراكم اللغوية)، والهدف التعليمي (الأخذ بأيدي القارئ إلى الارتقاء بالأسلوب)، وهي أهداف قلما تحققت في المعاجم الأخرى، التي كان هدفها في الغالب شرح الكلمات المفردة.
5. انفرد هذا المعجم بذكر عبارة (مجاز المجاز)، التي لا نجد لها ذكراً في المعاجم الأخرى، كما أنه اهتم بالشواهد اهتماماً كبيراً، فهو يستعين بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وكلام العرب المنثور من أمثال وعبارات مأثورة، وكلام العرب المنظوم، واختصّ بذكر بعض الشواهد التي لم تذكرها المعاجم الأخرى.
6. معجم أساس البلاغة له أهمية كبيرة في الدراسات الأسلوبية؛ ذلك أنّ عنايته بالتعبير المجازي هو الأساس في الأسلوب بالمفهوم الحديث، ويطلق الأسلوبيون مصطلح الانزياح (Deviation) على هذا النوع من التعبير الذي يعدّونهم عمدة النصّ الأدبي، كما يهتم اللغويون المعاصرون باللغة المستعملة في الخطاب، ويرون أنّ الاستعمال هو الذي يبرز الدلالة اللغوية في سياقاتها المختلفة. ومن هنا تأتي قيمة هذا المعجم الذي يرشدنا إلى فهم اللغة المستعملة في التراكم الأدبية، ويكشف عن دلالاتها المعنوية.
7. اهتم أصحاب المعاجم بأساس البلاغة، وأفادوا من مادته ومنهجه، ومن أشهر الدراسات التي كتبت بشأنه "غراس الأساس" لا بن حجر العسقلاني الذي أعجب بكتاب الزمخشري وقام بتلخيص المواد الخاصة بالمجاز منه. كما اختصر محمد عبد الرؤوف المناوي (1031هـ) الأساس

في كتاب أسماه "إحكام الأساس"، ورتبه على نظام القافية، وكتب ابن الأمير الصنعاني كتاباً أسماه "الإحراز لما في أساس البلاغة من كناية ومجاز"، وهو مخطوط.

خاتمة:

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

(1) بدأت الصناعة المعجمية في وقتٍ مبكّر في تاريخ العرب والمسلمين، وكانت المرحلة الأولى هي جمع اللغة، تبعها مرحلة التصنيف والتأليف المنهجي، ولعلّ من أبرز الأسباب الداعية إلى إنتاج المعجم الاهتمام بقراءة القرآن الكريم وفهم معانيه، والعناية بتدوين اللغة من أجل المحافظة عليها من الضياع أو التغيير، والعناية بتفسير الألفاظ الواردة في الحديث النبوي الشريف، والاهتمام بفهم الشعر العربي القديم وغيره من الكلام المنثور.

(2) تعدّدت المعاجم اللغوية العربية وتنوّعت مناهجها ومدارسها، وقد أنتج العرب عدّة معاجم متميّزة تدلّ على التطوّر الحضاري والعلمي في تلك الفترة، وقد تعدّدت طرائق وضع المعجم العربي حتى كادت تستنفد كل الاحتمالات الممكنة، فرتبوا معاجمهم - إجمالاً - إما على اللفظ، وإما على المعنى، وهذا وجد قسمان رئيسيان هما: معاجم الألفاظ، ومعاجم المعاني. وقد كان مجال تنافسهم واضحاً فيما يتعلّق بالقسم الأول؛ حيث وجدت في داخله طرق متعددة، بخلاف القسم الثاني حيث لم يوجد فيه إلا طريقة واحدة.

(3) اتبعت معاجم الألفاظ عدّة طرائق في ترتيب مادتها، أبرزها طريقة الترتيب المخرجي (الصوتي)، وأشهر معاجم هذه الطريقة هو معجم العين للفراهيدي، ومدرسة الترتيب الهجائي العادي، وتشكّلت في اتجاهين: مدرسة القافية، وتُعدّ بترتيب الكلمة حسب الحرف الأخير، وقد بدأها الجوهري في "الصّحاح"، ومدرسة الترتيب الهجائي حسب الحرف الأول وأبرز من يمثلها الزمخشري في معجمه "أساس البلاغة".

(4) بدأت فكرة معاجم المعاني في وقتٍ مبكّر في التراث العربي القديم، فظهرت رسائل مفردة ألفها القدماء ككتب الإبل والخيل والحيوان والنبات وغيرها، ثمّ تطوّرت إلى معاجم متخصصة في موضوعات كثيرة، ولعلّ أهمّها معجم "المخصّص" لابن سيده (458هـ)، هو أحد أغنى معاجم المعاني مادةً في تراثنا القديم، وهو يمثل بحقّ تطوّر الصناعة المعجمية في مستوياتها المختلفة، من

حيث المادة، والمنهج، والدقة والاستيعاب، وهو موسوعة لغوية وثقافية بما حواه من معارف عن اللغة العربية ومعرفة دلالاتها المختلفة.

(5) كان الدافع وراء تأليف معجم "أساس البلاغة" هو البحث في بلاغة العرب، وكان رغبة مؤلفه هي تحقيق أهداف دينية (البحث في إعجاز القرآن)، وأهداف علمية (البحث في التراكيب اللغوية ودلالاتها المعنوية)، وأهداف تعليمية (مساعدة القارئ على امتلاك الأسلوب الأدبي في الخطابة والكتابة). والترتيب المتبع هو الترتيب الألفبائي المعروف، وهو ترتيب ميسر يقوم على النظر إلى الحرف الأول من الكلمة، ثم الحرف الثاني، فالذي يليه، وهو ترتيب رائد في المعاجم اللغوية.

(6) تميّز هذا المعجم بمنهجه في العرض، فهو معجم بلاغي يبحث في العبارة المركبة، وقد اهتم بالعبارات المجازية الواردة في النصوص الدينية مثل القرآن والحديث الشريف والنصوص الأدبية مثل الشعر والأمثال وكلام العرب الفصيح. ولمعجم أساس البلاغة أهمية كبيرة في الدراسات الأسلوبية؛ ذلك أنّ عنايته بالتعبير المجازي هي الأساس في دراسة الأسلوب بالمفهوم الحديث الذي يعبر عنه بمصطلح الانزياح (Deviation).

المصادر والمراجع:

- مصطفى، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية بالقاهرة. (تركيا): دار الدعوة إسطنبول، (د.ت).
- ابن حجر، أوس. ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم. بيروت: دار بيروت، 1980.
- الباتلي، أحمد. المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها. الرياض: دار الراجحة، 1992.
- حسان، تمام. مناهج البحث في اللغة. الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة، 1979.
- ابن تيمية، أحمد عبد الحلیم. مجموع الفتاوى. الرياض: مكتبة ابن تيمية، 1982.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. بيروت: عالم الكتب، (د.ت).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد. الصحاح في اللغة. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. القاهرة: دار الكتاب العربي، (د.ت).
- نصار، حسين. المعجم العربي نشأته وتطوره. القاهرة: دار مصر للطباعة، 1968.
- أبو سكين، عبد الحميد. المعاجم العربية مدارسها ومناهجها. القاهرة: الفاروق الحديثة، 1981.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن أحمد. المخصّص. مصر: المطبعة الأميرية، 1901.
- السيوطي، جلال الدين. المزهرة في علوم اللغة. ط3. بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- ابن عاشور، محمد الطاهر. تفسير التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون، (د.ت).
- ابن عبد السلام، العزّ. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. دمشق: دار الفكر، (د.ت).
- إسماعيل، عز الدين. المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي. (الأردن): دار المسيرة، 2003.
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد. البحث اللغوي عند العرب. القاهرة: عالم الكتب، 2003.
- ابن فارس، أحمد. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت: دار الفكر، 1979.
- محمد، حسن عبد العزيز. مصادر البحث اللغوي. الكويت: دار الكتاب الجامعي، 1997.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب المحيط. بيروت: دار صادر، 1992.
- الهابط، فوزي يوسف. المعاجم العربية موضوعات وألفاظاً. شبن الكوم-مصر: الولاء، 1992.
- الهاشمي، معيد زمري. المجاز في أساس البلاغة للزمخشري. رسالة ماجستير (مخطوطة)، (بغداد): كلية التربية، جامعة بغداد، (د.ت).
- الحموي، ياقوت. معجم الأدباء. القاهرة: دار المأمون، 1938.